

مهرجان القاهرة السينمائي يفتح دفاتر الحنين

سمير جمال الدين يبحث عن هويته العراقية وماريان خوري عن ابنتها

من ضمن الأفلام العربية التي عرضت في مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، تابع جمهور المهرجان في دورته الحادية والأربعين، التي تختتم مساء الجمعة، الفيلم الروائي الأول للمخرج العراقي السويسري سمي جمال الدين المعنون بـ"بغداد في خيالي"، وكذلك الفيلم التسجيلي "أحكي لي" للمخرجة والمنتجة السينمائية المصرية ماريان خوري، وهما فيلمان اشتغلا على ثيمة الهوية كل على طريقته.



أمير العصري
كاتب وناقد سينمائي مصري

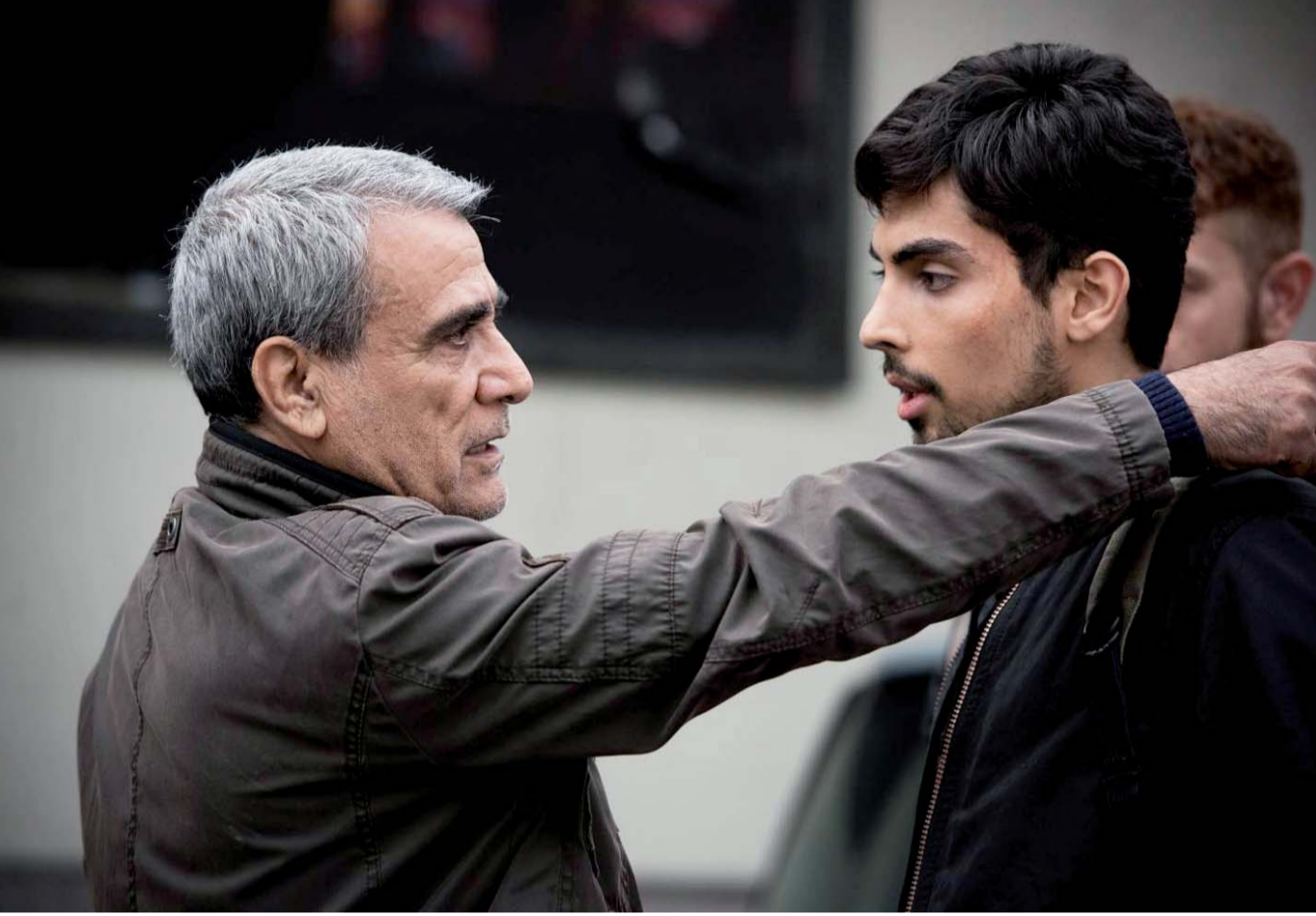
إلى "بغداد" التي كانت دائما في خياله وستبقى.. بغداد الماضي السعيد. تقوم الدراما على محاور عدة يتناول من خلالها سمي جمال بعض الجوانب المسكوت عنها في الثقافة العراقية خاصة والعربية بوجه عام، منها الفكرة الشائعة عن المثلية الجنسية (يسمونها في الفيلم الشذوذ الجنسي، كما تأتي عادة على اللسان العربي)، ومنها أيضا مسألة المرأة، والنظرة المتدنية إليها بوجه خاص إن هي تجرأت وأقدمت على إقامة علاقة عاطفية مع شاب ينتمي إلى المجتمع الآخر الذي هاجرت إليه وترغب في ترسيخ وجودها فيه، فكيف ترتبط وهي المسلمة بشخص هو "الأخر" صاحب الصورة النمطية المستقرة مسبقا في الوعي العربي؟ كما يصور الفيلم قضايا تتعلق بالتطرف الديني وحالة الضياع الفكري التي تصيب بعض الشباب تحت تأثير الدعاة المتطرفين الذين يسيطرون على المساجد (كما نرى في الفيلم)، والاتجاه إلى العنف والجريمة.

من خلال قصة تدور أحداثها وسط مجموعة من العراقيين المقيمين في العاصمة البريطانية لندن، يتطرق الفيلم إلى هذه القضايا وغيرها أيضا، ويستند أيضا إلى الماضي ويصوّر كيف يلقي بظلاله على الحاضر، فلدينا على سبيل المثال وسط هذا "المجتمع العراقي الصغير" في لندن، شخصية ضابط سابق في المخابرات العراقية في زمن صدام حسين، يطارد زوجته السابقة التي هربت منه إلى الخارج ويهددها بالقتل إن لم ترجع إليه، وبفضح علاقتهما بالشباب البريطاني أمام الجميع من أبناء الجالية العراقية، ولكنها تهدده من جهتها بكشف ماضيه الاستخباراتي باستخدام وثائق في حوزتها. وهي قصة على شاطئ الصدق والإفئاد، فكثير ممن لجأوا إلى بريطانيا بعد سقوط نظام صدام كانوا ممن خدموا هذا النظام وكانوا جزءا منه ومارسوا القمع والقتل أيضا!

المراة، أي الزوجة السابقة التي تقوم بدورها ببراعة الممثلة العراقية زهراء غندور، كانت تعمل مهندسة معمارية في العراق، لكنها أصبحت الآن ساقية في مقهى يمتلكه عراقي في لندن. وقد اختارت لنفسها اسم أمل حببيها البريطاني إنها مسيحية. وفي الفيلم شخصيات تنتمي إلى الشيعة والسنة والمسيحيين والأكراد. أما صاحب المقهى الذي أطلق عليه "أبو نواس" فهو في الأصل كاتب وشاعر، وكان قد تعرض في الماضي للتعذيب في العراق، لكنه خرج من السجن بموجب اتفاق أو "صفقة" ما يلقي الفيلم بظلال من الشك عليها، ويصور لنا شعوره الخفي بالذنب، فنحن نفهم أنه ربما يكون قد باع شقيقه وخطيبته وشقيقه وشوشن الشخصيات، ولم يكن الانتقال بين



"أحكي لي" قصة عن إحدى أشهر العائلات السينمائية بمصر



دراما الحالة العراقية في المهجر

كلماتها، حاولت أن تعيش في فرنسا ولكنها انتهت إلى كوبا. وكما كانت ماريان تشعر في طفولتها أن والدتها لم تهتم بها كما كان ينبغي، يراوض ابنتها سارة شعور مماثل. ولكن ما علاقتنا نحن المشاهدين بكل هذه التفاصيل والصور والحكي الذي لا يتوقف لحظة واحدة وكل تلك الشروح والإعراض والتدخلات والمقاطعات؟ وإلي، شقيق ماريان يقول لها في أحد المشاهد الأولى من الفيلم: لماذا تصوريين فيلما كهذا؟ ما الذي يهم الجمهور من أشياء شخصية تماما؟ ماريان بالطبع ترى أن وجود يوسف شاهين في الفيلم من خلال تلك المقابلة النادرة التي أجرتها معه (باللغة الفرنسية بكل أسف!) سيضفي عليه قيمة ما.

وهي تتجح في الربط بين حياة شاهين الخاصة وعلاقته بوالدته، وبين ما يصوره في بعض أفلامه التي نرى منها بعض المقاطع مثل "عودة الابن الضال" و"حدوتة مصرية" و"إسكندرية له". ولو كان الفيلم قد سار على هذا المنوال في الجمع بين حياة الفنان وأعماله السينمائية كان قد أصبح لدينا عمل منفرد. إلا أن الفيلم في الحقيقة ليس عن شاهين، بل عن ماريان وابنتها تحديدا، وبحث ماريان الممتد عن الهوية وهو السؤال الذي أغفلته طويلا ربما، بحكم انهاكها الكبير في العمل منذ أن تولت مسؤوليات الإنتاج في شركة أفلام يوسف شاهين (مصر العالمية).

هناك دون شك تلقائية كبيرة مثيرة للإعجاب في مشاهد المقابلات مع أفراد العائلة، ولكن يظل هناك الكثير من الفجوات والقفز فوق بعض الأحداث بحيث لا يمكننا القول إن ماريان تروي حقا قصة العائلة من خلال علاقتها بالنظرات السياسية والاجتماعية التي مرت بها مصر منذ أن جاءت عائلتها إلى مصر في أوائل القرن العشرين، فهذا طموح كبير تخذه المادة التي استعانت بها وهي في معظمها شخصية من أرشيف العائلة بما في ذلك تسجيل صوتي لمقابلة أجراها يوسف شاهين مع والدته، ثم لقطات لماريان داخل مستشفى لندني قبل إجراء عملية جراحية لها لاستئصال ورم سرطاني. لا أفهم لماذا جاءت لقطات المقابلة التي أجرتها ماريان مع ابنتها سارة محصورة داخل ذلك الإطار الضيق كأنها صورتها بكاميرا التلفزيون المحمول. ولم تصبح الصورة "طبيعية" إلا بعد أن تبادلنا الأثنتان الأدوار فأصبحت سارة هي التي تصور ماريان وتوجه لها الأسئلة.

خلال حياة عائلتها التي تعود أصولها إلى لبنان؟ لا أظن أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون في صالح الفيلم. صحيح أن هناك الكثير من المشاهد المؤثرة عاطفيا التي تسترجع فيها ماريان علاقتها بأمها، وهجرها لزوجها الأول الذي لم تستطع أن تتعايش معه، ثم محاولتها فهم ابنتها المراهقة المتمردة التي تبدو مستنفرة، عدوانية، توجه الكثير من الأسئلة وكانها تحقّق وتدين وتصدر أحكاما.

وسنفهم فيما بعد أنها تعاني أيضا مثل ماريان نفسها، من أزمة هوية تتحدث عنها بإسهاب أمام الكاميرا. فهي لا تعرف ما إذا كانت مصرية أم فرنسية، تشعر بالإغتراب في مصر، تنتمي كما تقول إلى عائلة غنية في مجتمع فقير، لا تتحدث لغة البلد الذي ولدت فيها إلا بصعوبة ولا يمكنها كتابة

اللغتين العربية والإنكليزية موقفا فليس من المعقول أن يتخاطب العراقيون بالإنكليزية فيما بينهم إلا مع الجيل الثاني الذي ولد ونشأ في بريطانيا.

ورغم هذه الملاحظات وغيرها، فالتجربة نفيص بالحميمية والصدق والرغبة في اكتشاف الذات والهوية. **استعادة شريط الحياة**

لا يوجد ما يمنع أن يصنع الفنان فيلما عن نفسه وعن حياته، شريطة أن يتمكن من الربط بين الخاص والعام، وبين الشخصي والموضوعي، وأن يمتلك قبل كل شيء، رؤية لأبعاد العمل وبنائه بحيث يخرج لنا في النهاية عملا متماسكا يخلو من الارتباك والتكرار ويخلو من الفراغات والثغرة. وهذا هو تحديدا ما يعيب الفيلم التسجيلي "أحكي لي" رابع الأفلام التسجيلية للمخرجة والمنتجة السينمائية المصرية ماريان خوري، وهو الفيلم الوحيد الذي اختير لتمثيل السينما المصرية في الدورة الـ 41 من مهرجان القاهرة السينمائي.

المشكلة الثانية هي أن الفيلم التسجيلي الحديث لم يعد يختلف كثيرا عن الفيلم الروائي الخيالي، فقد أصبح يستند إلى بناء قصصي أيضا، أي أنه يجب أن يكون لديك تصور أو رؤية لبناء الفيلم بحيث يمكنك أن تسحب المفرد معك وتشدّه إلى عالمك وعالم القصة التي ترويها بتفاصيلها التي تختارها بدقة وعناية.

هذا الجانب القصصي المتماسك غائب عن فيلم ماريان خوري الذي يعاني من التزلزل والتفكك وقدر كبير من العشوائية في المونتاج، اعتمادا على استناده إلى مقاطع قديمة نادرة من المقابلات والتسجيلات والصور، منها مقابلات مسجلة غالبا على شرائط فيديو عتيقة، مع عدد من أفراد عائلة ماريان، مثل شقيقها إلي وجايب، وعمها المخرج الكبير وابنتها، وجدتها. ولا شك أن الصور الفوتوغرافية القديمة بالأبيض والأسود التي توفر منها الكثير من "البوم" العائلة وتظهر فيها والد ماريان وجدتها اللتان تركتا تأثيرا كبيرا عليها، من أفضل ما شاهدنا في هذا الفيلم.

ولكن ما هو الموضوع، أو ماذا تريد ماريان خوري أن تقول لنا أو تصور لنا أو تعرض لنا، وما هي الفلسفة التي تكمن وراء الصورة، أو خلاصة بحثها الشاق عن الذات وعن الهوية.

فيلم "بغداد في خيالي" تناول العديد من الجوانب المسكوت عنها في الثقافة العراقية خاصة والعربية بوجه عام



فيلم "بغداد في خيالي" تناول العديد من الجوانب المسكوت عنها في الثقافة العراقية خاصة والعربية بوجه عام

فيلم "بغداد في خيالي" تناول العديد من الجوانب المسكوت عنها في الثقافة العراقية خاصة والعربية بوجه عام